السادة والعبيد

جمال عبدالرحيم

بهدوء شديد، كالمنوَّم مغناطيسيًّا، يستدير لمواجهة المرآة، تلك الملامح التي تواجهه ليست له بالتأكيد، لم يكن يومًا بذلك الوجه الممتقع المكسو بشحوب الموتى، عيناه الجاحظتان بصورة لم يعهدها من قبلُ، وتلك الأهداب التي تكسو جفنيه، تأبى أن تتحرك من مكانها، أصبحت كجيشين في ساحة المعركة، يخشى كلاهما ملاقاة الآخر.

يحرك راحتيه إلى أعلى، ارتعاشتهما لا تخفى عليه، تلك العروق النافرة تخفي أطنانًا من التوتر، أظافره المتسخة لم تكن كذلك يومًا، إهماله لتلك اللحية التي أولاها كل العناية من قبلُ جعل شعيراتها البيضاء التي ظهرت فجأة تخيفه إلى أقصى حد، تبدو أمامه للوهلة الأولى كرايات الاستسلام في معركة لم تبدأ بعدُ.

يتحرك لا إراديًّا إلى الأمام قليلًا، يده تمتد لتفتح الصنبور، المياه تتساقط بلونها الداكن الذي حاول اعتياده من دون جدوى، تتساقط قطرات الماء لتلامس راحته الممدودة، تختلط بالدماء التي لوَّثت يديه وروحه منذ قليل، ينجح جزئيًّا في إزالة الدماء بعد أن رسمت خطوطها المرعبة في راحتيه.

تحين منه التفاتة إلى الخلف قليلًا ناحية الأريكة القديمة ذات الذراع المكسورة، التي تتصدر غرفة الجلوس؛ حيث جسد زوجته وقد تلطخ بالدماء، وقطراته تغرق السجادة البالية، وعلامات الرعب تأبى أن تفارق ملامحها، حتى بعد أن فقدت عيناها بريق الحياة.

كشريط سينمائي لعين، تمر أمامه حياته المدمرة، ولحظات سعادته المبعثرة كحاملة جنود أصيبت بصاروخ حارق إصابة مباشرة، يذكر جيدًا كيف حدث الأمر، كملايين من بني وطنه عانى في الفترة الأخيرة لعنة ركود اقتصادي تحوَّل لانهيار، وجد نفسه في الشارع تركله الأقدام بعد أن أفنى عمرًا بتلك الشركة العتيقة.

سيُطرد من مسكنه، لن يستطيع توفير مسكن بديل، لن يجد قوت يومه بعد الآن، نفقات علاج زوجته من مرضها اللعين هي الأخرى خارج نطاق قدرته، هي اختارت أن تتألم في صمت، لم تشكُ، على الرغم ممَّا يعتصرها من ألم، استسلمت لقدرها ولشبح الموت الزاحف ببطء، كأخطبوط ترسَّخ يقينه بعجز ضحيته عن الإفلات، طعناته منذ قليل أودت بحياتها، لن يتركها من خلفه تقاسي العذاب.

أوراق الجريدة مبعثرة في المكان، تلطخت بالزيوت منذ ساعات عند تناول الإفطار الأخير، تلفت انتباهه تلك الصورة لرجل أنيق في حلته العسكرية، يقترب منها وشياطين غضبه ترمي بشرر ملتهب، وصوت صاحب الحلة العسكرية ينبعث من تلفازه العتيق الذي أبى أن يبث صورة منذ فترة بعيدة:

- بلادنا تمضي في صدارة ركب التقدم، غدًا ستشرق شمس أمتنا لنسود العالم من جديد.

يقترب من جسد زوجته قليلًا، قبل أن تمتد يده محاولًا ملامسة شعرها الحريري كما اعتاد من قبلُ، قبلَ أن يعلن وأد الفكرة في مهدها، يقترب أكثر من جهاز التلفاز ليركله بقدمه ليتهشَّم بصوت مكتوم، ليخرس ذلك الصوت المنبعث من داخله إلى الأبد.

يعود أدراجه إلى الخلف، يلقي نظرته الأخيرة على صاحبة الوجه المنهك بالمرض، على الرغم من كونها في ريعان شبابها، قدمه تطأ تلك الصورة لصاحب الحلة العسكرية، يتوقف قليلًا مستمتعًا بسحْقِه، يُشعل آخر سيجارة لديه، تشتعل مقدمتها كنظرة شيطان نبتت في الجحيم، ليدسها في البقايا المهترئة لصورة الرجل العسكري، لينبعث دخان رمادي من موضع العين تمامًا، تتألق ابتسامة نصر باهتة فوق شفتيه، قبل أن يقترب من شرفته المطلة على الشارع، لا صوت في مدينة الأشباح تلك، حتى الكلاب الضالة خارت قواها وفقدت قدرتها على النباح.

يستنشق ذلك الهواء الملوث بأدخنة القمامة، قبل أن يقفز إلى الأمام، ليحلق قليلًا وابتسامة شيطانية ساخرة ترتسم فوق ملامحه، ثم يظلم كل شيء.